مراجعة كتب

المثقّف الوطني في جوف الآلة

جدليّة الثبات والاهتزاز *

د. سماح ادريس

تحلّ في مثل هذه الأيام ذكرى مرور سنتينْ على اندلاع «عاصفة الصحراء» أو «أم المعارك». وفي هذه الذكرى الأليمة رأيتُ أن أشرك قرّاءالآداب في متابعة أحداثٍ وتحليلات ومواقف بارزة في كتاب جديد قيّم صدر للدكتور الصديق حليم بركات، أستاذ علم الاجتماع والرواية في جامعة جورجتاون في واشنطن.

يوميّات من جوف الآلة، كما يدلّ العنوان، متابعة شبه يوميّة للأحداث المتسارعة التي أدّت إلى الحرب التي قادتها الولاياتُ المتحدة ضدّ العراق عقب اجتياح الأخير للكويت، ومتابعةً لأحداث الحرب نفسها، ولنتائجها وللحقائق التي تمخّضت عنها بعد عامٍ وأكثر على انتهائها. ويقوم بهذه المتابعة حليم بركات من مسكنه في واشنطن التي تدير آلةَ الحربِ «الحضاريّة» ضد العرب.

في أسباب قيام الأزمة الأمريكية ـ العراقية ، يوجّه بركات نقده الأشرس للولايات المتحدة الأمريكية. فهي في رأيه لم تكن تريد حلاً سلميّاً عقبَ اجتياحِ العراق للكويت، «فأرسلت وفداً رفيعَ المستوى إلى السعودية، ونشطتْ عالمياً وفي الأمم المتحدة لفرض حصار اقتصاديّ على العراق، في الوقت الذي أخذتْ تُعدُّ فيه لضربة عسكريّة ضدّه» (ص ١٨). وهو يؤمن بأنّ الولايات المتحدة تهدف من وراء حملتها العسكرية على العراق إلى الاستمرار في السيطرة على النفط (ولاسيّما بعد استفحال التحدّي الاقتصادي الياباني والألماني عقب انتهاء الحرب الباردة)، وإلى

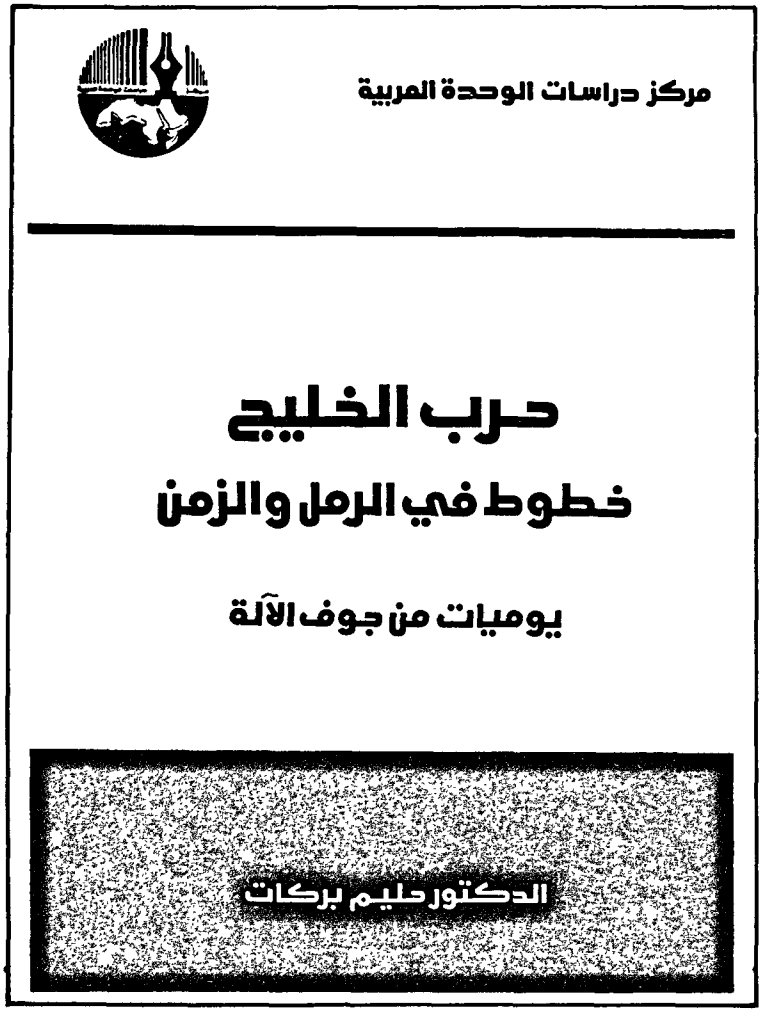

(*) د. حليم بركات، حرب الخليج: خطوطٌ في الرمل والزمن ـ يوميات من جوف الآلة (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٢).

منع قيام قوة عربية مستقلّة متقدّمة علمياً واقتصادياً وعسكرياً، وإلى ترسيخ الوجود العسكري الأمريكي المباشر في المنطقة، وإلى الإبقاء على التفوّق الإسرائيلي على حساب الفلسطينيين والعرب جميعاً، وإلى إلحاق هزيمة معنوية ونفسية بالشعب العربي تحوّل بينه وبين المقاومة من أجل تحقيق هويّته، وإلى غير ذلك من الأسباب (ص ٢٤٤ ـ ٢٤٦). ويلمح قبل ذلك إلى أن «الانتصار» الأمريكي يُساعد الشعب الأمريكي على التغلّب على «عقدة ڤيتنام»، وهي العقدة التي نشأت عند ذلك الشعب عقب هزيمة الولايات المتحدة على يد الثوار الڤيتناميين.

وإذ يتساءل القارئ عن مسؤوليّة القيادة العراقية عن الأزمة، فإن بركات لا يتسرّع في اتّهام تلك القيادة بالمسؤولية المباشرة. فهو يؤكّد ـ قبيل نشوء الحرب ـ أن «الوحدة كثيراً ما تمّت تاريخياً بالقوّة»، (رغم أنّه يستدرك بأنّ ذلك لا يبرّر تصرّف القيادة العراقية)؛ وهو يذكّرنا بأنّ «الكيانات العربية القائمة قد قامت بالقوة لا بالطرق الديموقراطية والسّلميّة، وهي مستمرة لا بإرادة شعوبها بل نتيجةً للإحساس بالعجز تجاه استبدادية الطبقات والجماعات والعائلات الحاكمة المتحكمة مدعومةً بالحماية المحلية والعالمية...» (ص ١١). ويعود بركات بنا كذلك إلى الوثائق التاريخية وإلى المقالات الأمريكية المستندة إليها ليبرهن أن المفوّض السامي البريطاني پيرسي كوكس هو الذي رسم في تشرين الثاني في مؤتمر عقير ما أصبحَ فيما بعد «الحدود العراقية ـ الكويتية». ويرى بركات أن العراق قد حُرم منذ ذلك الزمن من منفذٍ حيويّ على الخليج، وكان ذلك عاملاً من العوامل التي أدّتْ إلى قيام الحرب العراقية الإيرانيّة. ويعود بركات كذلك إلى خطاب صدّام حسين في ٣٠ أيار ١٩٩٠، وفيه اتّهم الرئيس العراقي بعضَ دول الخليج بأنّها تُنتج كمية من النفط تفوق ما كانت الدول العربية قد اتفقت عليه، فهبط سعر برميل النفط أحياناً إلى سبعة دولارات أي بانخفاض أحد عشر دولاراً عن السعر المتّفق عليه (ص ٣٨)؛ وبركات يؤيّد في هذا المجال مطالب العراق في رفع سعر البترول دفعاً للغبن عن العراق، علماً بأنّ بركات يشدّد على رفضه التاريخي «لاستبداديّة النظام العراقي، وتنكيله، وحصره السلطة في شخص وجماعة، وتسرعه في حلّ مشاكله مع الثورة الإيرانية عن طريق الحرب، وتغليبه التناقضاتِ الثانوية على الأولية خاصةً في علاقته بسوريا(وكان ذلك متبادلاً)» (ص ٩).

لكنّ بركات لا يؤيد احتلالَ العراق للكويت، بل يشجبه شجباً لا لَبْسَ فيه، رغم انتقاداته للكويت، وللتقسيم الاستعماري في عشرينات هذا القرن.

ويُنحي بركات باللائمة كذلك على بعض الدول العربيّة التي عجزت عن تطويق الأزمة العراقية ـ الكويتية قبل تفاقمها. ويشدّد هجومه على الدول الخليجيّة التي ارتبطت بالغرب الإمبريالي ارتباطاً تاماً وقدّمت مصالحها الطبقية على القضية الوطنية بله الولاء الديني (ص ١٢٣).

وإذْ تندلع الحرب في ١٦ كانون الثاني ١٩٩١ فإنّ يقينيّات المثقف الوطني تبدأ بالاهتزاز. فهو يؤيّد العزّة القوميّة، ويؤيّد العراق في رفضه الخضوعَ للمشيئة الأمريكية؛ لكنّه يخشى ـ في الوقت نفسه ـ على العراق من الدمار، ومن الهزيمة الساحقة. وهو يشكّ في صحّة الخطابات العراقية عن التعبئة الشعبيّة ويخطّئ القيادة في رهانها على الحرب البرّيّة («فقد لا تكون هناك حاجة إلى معركة برّيّة» ص ١١٢)؛ لكنّه يعرب في لحظات أخرى عن إيمانه بـ«البطولة» وبالحرب التي لن تنتهي اليوم أيّاً كانت نتائجها مادام الباطلُ منتصراً؛ بل إنه يؤكد في غالبية الأحيان أن القيادة الأمريكية كانت ستدمّر العراق حتى لو انسحب من الكويت، ودليله على ذلك هو تعبئة الإدارة الأمريكية الشعبَ والكونغرس من أجل حلّ عسكري. وما إن بدأت الحرب البريّة ضدّ العراق حتّى بدأ المؤلّف يميل إلى مفاهيم «الكرامة والعنفوان»، في حين.وجدناه قبل بداية الحرب البرّية أشدّ ميلاً إلى مفاهيم «العقل والعلم» (ص ١٨٢).

غير أنّ أهميّة الكتاب ليست في تحليل أسباب الحرب ـ وقد فصّلها غيرُ باحثٍ عربي وغربي ـ ولا في اتخاذ المواقف القوميّة الجامعة، وإنما تكمن أهميته في أمور ثلاثة:

I ـ تقديم پانوراما شاملة عن موقف المثقفين العرب حيال الأزمة والحرب.

II ـ الحديث عن مواقف القوى المعارضة الأمريكيّة.

III ـ الغوص في آلية صنع القرار الأمريكي، والإدلاء بآراء هامة في «الديموقراطية».

* * *

I ـ ففيما يختص بموقف المثقفين العرب من الحرب الأمريكية/العراقية يقدّم بركات خارطة ثقافية لعلّها الأشمل في أدبيّاتنا الحديثة. ويمكننا قسمة أولئك المثقفين إلى أربع مجموعات:

أ ـ الذين ارتضوْا أن يكونوا أداةً من أدوات صناعة القرار الأمريكي. ويمثّلهم الدكتور فؤاد عجمي، الذي لا يتورّع عن وصف العراق في مجلة Foreign Affairs (شتاء ١٩٩٠/١٩٩١) بأنّه «بلدٌ هامشيّ بين الفُرس والجزيرة العربيّة، قليل الصلة

بالثقافة والكتب والأفكار الكبرى»!!

والجدير بالذكر أنّ عجمي كان قد نعى «القوميّة العربيّة»، وأيّد مجازر حركة أمل ضد المخيّمات الفلسطينيّة، وهو صديق لبرنارد لويس وللمثقفين الصهاينة في أميركا.

ونستطيع أن نضع في هذه المجموعة بعضَ المثقفين الكويتيين المقيمين في أميركا. ويركّز بركات في هذا الصدد على حسن الإبراهيم، وهو مثقف أدّعى أن إخوتَه قُتِلوا في الاجتياح العراقي، هادفاً إلى حثّ ادوارد سعيد وهشام شرابي وهشام بطاطو وغيرهم من المثقفين العرب المقيمين في الولايات المتحدة على إصدار بيان «يندّد بالجرائم العراقية» (ص ٢١ - ٢٢). وما لبث الإبراهيم أن دعا في بيان أصدره في ٢٨ آب ١٩٩٠ المثقفين العرب (أمثال سعيد وبطاطو وكلوفيس مقصود) إلى الانتحار «لجبنهم» (ص ٢٨)، مهدّداً تهديداً ضمنياً بانتقام الكويتيين من الجالية الفلسطينيّة في الكويت عقب التحرير! وحسن الإبراهيم هذا زعم لبركات أن العراقيين اغتصبوا أخته (أخت الإبراهيم) (ص ٨٥)، وهو زعمٌ كاذب كما تأكد لبركات فيما بعد. واكتشف الأخير كذلك أنّ صديقه الإبراهيم يعمل مع وكالة «هيل اند نولتون» التي كانت مكلّفة بتضخيم الاعتداءات العراقية لكسب تأييد الرأي العام الأمريكي لعمل عسكري أمريكي ضدّ العراق. ويأسف بركات لأن الإبراهيم - أسوةً ببعض الكويتيين الآخرين - قد أعرب عن رغبته في رؤية إسرائيل تحرِّره «من براثن صدام» مؤكّداً (أي الإبراهيم) أن «مجزرة الكويت محت من ذاكرته مجزرةَ كفر قاسم»، وأن العروبة «كانت خدعة»!

ب - الذين وقفوا موقفاً مؤيّداً للاجتياح العراقي للكويت، ومعادياً للتدخل الأمريكي في الخليج. ومن هؤلاء المثقفين العرب الكاتب المغربي محمد الأشعري الذي عبّر عن سعادته «بهذا الحريق الذي اندلع فجأة صبيحة اليوم الذي دخلت فيه الكويتُ التاريخ وخرجت فيه من الجغرافيا»؛ فلقد استطاع العراق - حسب تقدير الأشعري - «بضربة واحدة مسحَ الكويت مثلما يُمسح أيُّ خطأ في الرسم»، في إشارة إلى فصل الاستعمار الكويت عن العراق (ص ٥٦).

جـ - الذين عارضوا التدخل العسكري الأمريكي، وطالبوا - في الوقت نفسه - العراقَ بالانسحاب من الكويت، مع تأكيدهم على الوقوف إلى جانب العراق في حال نشوب الحرب، ومع تحميلهم الكويت المسؤولية غير المباشرة عن اندلاع الحرب. وتضم هذه المجموعة غالبية المثقفين العرب، أمثال عبد الرحمن منيف وفيصل درّاج ومحمد بنّيس ومحمود أمين العالم ونوال السعداوي وسعدالله ونّوس وممدوح عدوان وحيدر حيدر ومحمد عابد الجابري. وتغلب على هذه المجموعة - التي تضمّ المؤلّف نفسه كما نحدس - مشاعرُ الولاء العروبي المليء بالطموح والعزّة القومية والمليء بالأوهام كذلك. وهذا ما يعبّر عنه قولُ الجابري قبل انتهاء الحرب: «العقول الالكترونية لا يُمكن أن تهزم العقولَ البشريّة المعزَّزَةَ بالايمان القوي بالقضيّة» (ص ١٣٧)؛ ويعبّر عنه كذلك قولُ بركات نفسه: «لن تكون لنا قدرةٌ على تغيير مجرى هذا المستقبل إلّا بالبطولة في مقاومة هذا الرعب الآلي الذي يُصرّ على سحقنا. لا مستقبل لنا إلّا بالبطولة المسنودة بالإرادة والوعي» (ص ١٣٩).

د - مجموعة قليلة من المثقفين العرب الذين عارضوا الاجتياح العراقي والتدخّل الأمريكي سواءً بسواء، من غير أن يُعلنوا وقوفهم إلى جانب العراق في حال حصول حرب. ومن هؤلاء المثقفين أحمد الخطيب (كويتي)، وإدوارد سعيد من الولايات المتحدة.

* * *

II - وفيما يختصّ بالمعارضة الأمريكيّة، فإنّ قلّة من المثقّفين تعرّضوا لمواقفها من حرب الخليج، بل اكتفى أكثر مثقفينا العرب باعتبار الولايات المتحدة مجتمعاً أحادياً تراصّياً (monolithic) خلواً من التناقضات الداخلية. وأمّا كتاب بركات فيبرز مواقف المعارضة كما عبّرت عنها شعاراتُ التظاهرات في المدن الأمريكية، ومقالاتُ بعضِ المثقفين في جريدة الواشنطن بوست خاصةً. وهاكم جملةً من الاكتشافات التي تطلعنا عليها تقارير المعارضة قبيل الحرب وأثناءها وبعدها:

- «المسألة ليست مسألة جنون شخص واستبداده [في إشارة إلى إصرار الإدارة الأمريكية على رمي الرئيس العراقي بالجنون] بل هي مسألة الاستمرار في السيطرة [الأمريكية] على النفط»، وإلّا لكان السعوديون أولى بالقتال على اعتبار أنهم «يقطعون الرؤوس والأيدي ويديرون مجتمعاً لا يكاد يصل إلى مرحلة ما بعد الإقطاعية» (ص ٣٥)؛

- «هل يشكّل صدّام تهديداً لأمننا [أمن أمريكا] القومي أكثر من واقع أنّ ٣٧ مليون أمريكي تنقصهم العناية الصحية، وأنّ ٢٠ مليوناً يعانون من سوء التغذية، وأنّ ٣ ملايين بدون مأوى، وأنّ ٢٠ مليوناً من الأميّين، وأنّ ١٢ مليوناً لا يجدون عملاً كاملاً؟» (من افتتاحيات صدرت في ٩١/١/١٥)؛

- إنّ حقيقة أنّ السود الأمريكيين يشكّلون ٣٠٪ من القوات المحاربة، وأنّ

الفتيات السوداوات يشكّلن ٤٩٪ من المتطوّعات في الجيش رغم أن السود والسوداوات لا يشكّلون سوى ١٢٪ من الشعب، مردّهما إلى الأوضاع الاقتصادية المزرية التي تدفع بهم وبهنّ إلى الجيش (ص ١٠٠). وأمّا القادة العسكريون السود (كـ «باول» وأضرابه) فيعملون لمصلحتهم الشخصية وهم جزء من عمليّة الإيحاء بأنّ المؤسّسة الأمريكيّة الحاكمة منفتحة على جميع الألوان والأجناس (ص ١٥٧).

ـ عند بداية الأزمة (أيلول ١٩٩٠) كان ١٠٪ فحسب من الشعب الأمريكي يؤيّدون الحرب، وكان ٤٨٪ من هذا الشعب يطالبون الإدارة الأمريكية بأن تُعطي الحصار الاقتصادي (sanctions) الوقتَ الكافي لكي يُؤتي ثمره. أما مظاهرة ٩١/١١/١٩ أمام البيت الأبيض فقد شارك فيها مئة ألف معارِض (لا ٢٥ ألفاً كما ذكرت الشرطة)، وأما التي تلتها(٩١/١/٢٦) فقد شارك فيها ٣٠٠ ألف معارض (لا ٧٥ ألفاً حسب زعم الشرطة)(*).

وبناء على حجم المعارضة الضخم، فقد عمدت الكويت إلى دفع مبالغ طائلة لوكالات دعائية (مثل Hill and Knowlton, و Wirthin Group) كي تهيّج الأمريكيين ضد العراق. وقد قدّم سفير الكويت إلى أميركا ١٣ بليوناً ونصف بليون دولار مؤكّداً أنّ هذا المبلغ صغير لا يستحقّ الذكر (يتساءل بركات هنا: إذا كان هذا المبلغ لا يستحقّ الذكر، فلماذا كان من الصعب مسامحةُ العراق بديونه؟) (ص ١٣٠). وعمدت وكالة «هيل أند نولتون» وغيرها من الوكالات الأمريكية المدفوعة إلى اختلاق الحكايات عن الجرائم العراقيّة فدرّبت ـ على سبيل المثال ـ ابنةَ السفير الكويتي سعود ناصر الصباح لكي تكذب أمام الإعلام وتدّعي أنّ اسمها «نيرة» وأنها شاهدت جنوداً عراقيين «ينزعون ١٥ طفلاً كويتياً من حاضناتهم في مستشفى العيدان في مدينة الكويت ويتركونهم للموت على الأرض الباردة»؛ وهو ما صدّقته وكالة العفو الدولية أوّل الأمر، قبل أن تتراجع عنه لاحقاً بعدما أثبت الصحفيُ المعارضُ الكسندر كوكبورن كذبَ هذا الخبر (تُراجَع في ذلك جريدة النيويورك تايمز في ٦ كانون الثاني ١٩٩٢، ودوريّة The Nation في ٤ شباط ١٩٩١).

غير أنّ ما لم يتحدث عنه د. حليم بركات هو واقع المعارضة الداخلي: شعاراتها الرومانسيّة تارة والمشكّكة بالعرب تشكيكاً يُحاذي المواقف العنصريّة تارة أخرى؛ وانقساماتها العميقة التي كثيراً ما كانت تعود إلى تشنّجات فئويّة حزبيّة؛ وتأييد بعض أطرافها للصهاينة؛ وارتباط أقسام منها بالمخابرات المركزية الأمريكية؛ وهامشيّة أقسام أخرى وعدم جدّيّتها. وكلّها أمور ووقائع كان أولى بالدكتور حليم أن يعطيها الاهتمام الكافي، اللهمّ إلّا إذا شاء أن يقصر اهتمامه على بيانات المعارضة وتحليلاتها السياسيّة دون الاحتكاك المباشر بأحزابها والمنضوين فيها.

* * *

III ـ من أبرز القضايا التي يتصدّى لها الكتاب آلية القرار الأمريكي، وتحديداً مفهوم «الديموقراطيّة الأمريكية». فالكتاب لا ينتقد ذلك المفهوم ـ كما هو شائع عند كتّابنا العرب ـ من زاوية التهجّم المجّاني أو العموميّات التبسيطيّة؛ وإنّما يلتقط لحظات مصيرية في سيرورة تلك الديموقراطيّة ليبرز خللها. وأستميح القارئ عذراً في إيراد مقطع طويل من كتاب د. حليم في هذا الصدد (من يوميات ١٩٩٢/٢/٢، قبل أسبوعين من بدء الحرب):

أرى أن تُقاس الديموقراطية بمدى حصول نقاش حرّ ومفتوح حول القضايا الأساسية التي تؤثّر في حياة المجتمع أو المؤسسة أو الجماعة، وبالتوصّل من خلال هذا النقاش إلى القرارات الحكيمة بحيث يصبح الشعب مصدر السلطة حقّاً. ولا تكون الديموقراطية لمجرّد المشاركة في انتخابات تكون فيها خياراتُ الناخب محدودةً مسبقاً، فيضطرّ الناخبُ أن يختارَ الأقلّ سوءاً بين الخيارات القليلة أمامه ودون أن تتوفّر لديه المعلومات الصحيحة.

أثير هذا الموضوع للنظر فيما إذا كانت عملية صنع قرار الحرب عملية ديموقراطية في ضوء تعامل الحكومة الأمريكية مع المعارضة... لم يُناقِش الكونغرس الأمريكي مسألةَ دخول أمريكا الحربَ، واضطرّ أن يُوافقَ على تخويل الرئيس الأمريكي استعمالَ القوة عند الضرورة، قبل أيام قليلة من نشوب الحرب، وبعد أن اتّخذ الجيش الأمريكي مواقعه في الخليج، وحين أصبح الكونغرس مضطرّاً لأنْ يؤيد الرئيس لأنّ عدم تأييده في هذه الحالة يعني عملياً عدمَ مساندة القوات المحاربة وهي في الجبهة، وهذا ما سيعرّضها للخطر... بكلامٍ آخر، وضعت الإدارة الأمريكية الكونغرس أمام الأمر الواقع وألغتْ خياراته، فاقتصرَ النقاش على ايجاد المبرّرات والبحث في الشكليّات... (ص ١٤٠).

* * *

ثمة ملاحظات ختامية أودّ الإشارة إليها، وهي:

١ ـ الكتاب لا يمكن إلا أن يُكتبَ بالعربيّة ويوجَّهَ إلى قارئ عربي. فهاجس الكتاب الدفاعُ عن العرب وعن عدالة قضيّتهم، دون الاهتمام المباشر أحياناً بهموم الأمريكيين أو مشاعرهم ولا بهموم اليهود والإسرائيليين والمتحالفين معهم ومشاعرهم. خُذْ، مثلاً، فَرَح حليم

(*) أذكر أنّني التقيت بحليم في المظاهرة الأخيرة، وكان يحمل يافطةً منددة بالتدخل الأمريكي.

بركات بصاروخ «السكود» العراقي الذي سقط على تل أبيب، إذ يقول: «حان وقت الأعداء أن يختبئوا ويقلقوا... لا أزيد أن أخدع نفسي، لا أرى نصراً في الأفق، ولكنّنا لن نستسلم... سنظلّ نبحث عن بطولة نادرة في زمن الرماد» (ص ١١٨). ولاحظْ كيف يتماهى بركات مع الجيش العراقي ومع الشعب الفلسطيني المهلّل فوق سطوح فلسطين للصاروخ العربي يدكّ الكيان الصهيوني. وغنيّ عن الذكر أنّ مثل هذا الفرح محرّم (تابو) في الأدبيات العربية الأمريكيّة، ويُرمى صاحبها بـ «اللاإنسانية» و«اللاساميّة»، إلى ما هنالك من مصطلحات تعبّر عن معايير مزدوجة تقبل الأذى للعرب وترفضه حين يصيب اليهود.

وخذ مثلاً آخر هو فرح بركات بصاروخ عراقي يَضرب «الخُبَر» قربَ الظّهران، فيقتل ٢٧ أمريكياً. وإنّ المرء ليتساءل إنْ كان بإمكان بركات أن يكتب عن فرحه ذاك بالانكليزية؟!

٢ ـ نمطُ اليوميّات عاجز في كثير من الأحيان عن التحليل المتأنّي العميق. ومثالنا على ذلك معالجة د. حليم لـ«القضيّة الكرديّة»، وهي معالجةٌ لا تقدّم بديلاً سريعاً لمأساة الأكراد، رغم أنّنا ـ أسوةً ببركات ـ نرفض تقسيم العراق ولجوء القيادات الكرديّة إلى أحضان الإمبريالية الأمريكية. ولكن يبقى السؤال: ما هو البديل الذي نقدّمه لهم؟ وهل تكفي العودة إلى شعارات القومية العربيّة بخصوص حقوق الأقليّات؟

٣ ـ يُثبت الكتاب أن لا غنى للعربي عن الاطّلاع على الصحافة الغربيّة لمعرفة الحقائق. ومن هذه الحقائق مثلاً أنّ موظّفة في مكتب الاحصاء الأمريكي طُردت من عملها لأنّها ذكرت لأحد الصحفيين أن ١٥٨ ألف عراقي قُتلوا على يد القوات المتحالفة، بينهم ٣٩,٦١٢ امرأة و ٣٢,١٩٥ طفلاً (ص ٢٤٩). ومن هذه الحقائق ما ذكره الضابط «بيني ويليامز» لـ **الواشنطن بوست** في ١٢ أيلول ١٩٩١، ومفاده أنّ الجيش الأمريكي الذي اقتحم الخطوط العراقية الدفاعية الأولى في الأيام الأولى من الحرب البريّة في أواخر شباط ١٩٩١ قد استعمل جرّافات ترابيّة رُكّبت إلى الدبابات الأمريكية في دفن «مئات أو آلاف من الجنود العراقيين ـ وكان بعضهم مايزالون أحياء» في خنادق تمتدّ حوالي ٧٠ ميلاً على الحدود العراقية السعودية؛ ويتابع الضابط «لقد دفنوهم أحياء تحت أطنانٍ من الرمل»!

ومثل هذه الأخبار كثير في الكتاب، وهو يفضح الإعلام العربي لإغفاله مثل هذه الحقائق. لكنّ الكاتب ـ كما قدّمنا ـ لا يثق بكل التقارير الإعلاميّة الغربيّة، وإنّما يدعونا إلى تمحيصها وأخذ الحيطة من بعضها.

* * *

يبقى أخيراً أنّ الكتاب مرشّح لأن يُمنع في أكثر البلدان العربيّة. وهذا سيضرّ بالشعب العربي التائق دوماً إلى الحقيقة. لكنّ ذلك المنع لن يكون إلاّ وساماً على صدر كاتبه لأنّه استطاع أن يتّخذ من الحقيقة مشعلاً في وجهِ الطّغاة.

رأيان في «مرثيّة الغبار» للشّاعر شوقي بزيع

الدكتور سهيل ادريس

١

شاعر الشفافيّة والإيحاء

ليس من العسير على راصد الشّعر العربي الحديث أن يحكم على الشّاعر شوقي بزيع بأنّه من أكثر الشّعراء المبدعين حضوراً، ومن أقدرهم على تمييز عطائه بخلق عالمٍ شعريٍّ هو نسيج وحده، يستمدّ حِبْرهُ من دواته الخاصّة ويكره أن يستعير أصابعه من يد أحد.

ولاشكّ في أنّ ديوان شوقي بزيع الأخير **مرثيّة الغبار** (وهو الخامس الذي تعتزّ دار الآداب بنشره بعد إخوة أربعة سابقة له) هو أكثر إنتاجه نضجاً وتطوّراً، وأعمقه تدليلاً على تميّز شخصيّته الشّعريّة وأدائه الفنّي.

وقصيدة «مرثيّة الغبار» التي تحمل اسم الديوان حافلة بأجواء هذا العالم الذي يتفرّد الشّاعر برسم أجوائه وإيراد دلالاته. فهي استدعاء الطّفولة بكلّ براءتها ونقائها من أعماق كهل في الأربعين يمتلئ أفق روحه بالغبار الذي خلّفته أنقاض الحرب، فيتساءل متوجّهاً إلى الطّفل فيه: «هل أنا أنت؟ ومن نحن؟(...) أيّها الطّفل/ يا ولداً كنتهُ قبل ثلاثين عاماً/ أما كان في الأرض مُتّسع لي ولك؟(...) أنا اثنان/ يصرخ كلٌّ بصاحبه: أنْجُ سعد، فإنّ سُعَيْدَاً هلك/ أنا اثنان/ لا يسمعان سوى الرّيح تهدر بين حطاميها/ واقفان على ضفّتيْ هذه الحرب/كلّ يشير إلى رأس صاحبه في ذهولٍ/ ويسألُ: من قَتَلَكْ؟».